ولماذا لا يختلف الأتراك حول أورهان باموك؟

كافحم الأحزان ليجعلها مُلكاً له

بين تركيا العلمانية المسلحة بالعسكرتارية، وتركيا العثمانية الإسلامية في منحاها المتطرف، لا يمكن تقديم صورة بعيدة لأورهان باموك، خصوصاً مستواها المتناقض لبعضها. فإن يكن باموك ليس علمانياً مسلحاً ولا إسلامياً عثمانياً، فإنه بقي، في إنتاجه الأدبي وتصريحه القولي، ابن تركيا الأصيل بكل تعدديتها واختلافاتها، بل وتناقضاتها.

نشر أورهان أول رواية له "جودت بك وأبناؤه" التي صدرت عام ١٩٨٢م، عن أحوال عائلة تركية تابع تطورها عبر ثلاثة أجيال. وبتقنية كلاسيكيَّة أفرد للقرن العشرين صفحات واسعة (بدءًا من انهيار الإمبراطورية الحاكمة مرورًا بوفاة أتاتورك، أبي تركيا الحديثة، وصولاً إلى موجة الانقلابات العسكريَّة). وجاءت بعدها رواية "المنزل الصامت" ١٩٨٣م، ثم "القلعة البيضاء" ١٩٨٥م التي كانت بوابة أولى لشهرته، و"الكتاب الأسود" (جائزة الثقافة الفرنسية)، وصولاً إلى "الحياة الجديدة" ١٩٩٤م.

روايته السادسة "اسمي أحمر" فتحت أمامه أبواب الشهرة عالمياً. وتتناول الرواية المواجهة بين الشرق والغرب في ظل الإمبراطورية العثمانية نهاية القرن السادس عشر. وتعتبر"الكتاب الأسود" هي الرواية الأكثر رواجاً له في تركيا (ويصف فيها رجلا يبحث بلا هوادة عن امرأة لمدة أسبوع في إسطنبول المكسوة بالثلج والوحول). أما روايته "ثلج" ٢٠٠٢م فتصور هوية المجتمع التركي

أورهان باموك

والتعصب الديني. وأصدر أورهان مؤلفات أخرى مثل "إسطنبول" ٢٠٠٣م.

في رواياته، حسب قارئ أعماله نزار آغري، "يحضر التاريخ العثماني بكل ما ينطوي عليه من تناقضات. تزدحم نصوص باموك بألوان الأناضول الصارخة من جهة التنوع في المنابت والمذاهب والأقوام والشعوب. تحضر المحطات المضيئة التي سطعت في سماء الشرق مثلما تحضر المآسي التي رافقتها".

ونجد في هذه الأعمال "أناساً من كلّ المشارب، عسكريين حريصين على فرض النظام، ممثلين للدولة والشرطة، مراهقين متعصّبين لمعاهد «التبشير» الديني، ومُخبرين للشرطة يلعبون على أوتارٍ مختلفة، فتيات يعانين من مسألة الحجاب، مناضلين يساريّين سابقين فقدوا حماستهم، أناساً عاديين يشكّكون في «القيم الأوروبية» ويعارضون البرجوازية المتغربنة في اسطنبول، أكراداً تلاحقهم الأجهزة السرية التركية وتقتلهم القوات المسلحة، أرمناً كان طاردهم الجنود الأتراك وقاموا عليهم بحملات إبادة..."

روايات باموك هي رصد لمحطات الالتقاء والتصادم، بين أكثر من جهة: بين الترك والشعوب الأخرى القاطنة في الأناضول قبلهم وبعدهم، بين الشرق والغرب، بين التقاليد والحداثة، بين الريف

والمدينة، بين الأجيال، بين الثقافات واللغات والحضارات. وأورهان باموك يكتب كل ذلك متحرراً من النظرة والمواقف المسبقة، غير آبه للأحكام الجاهزة بحق من يتجرأ على نبذ الرؤية القومية الضيقة التي تقسم العالم إلى فسطاطين: نحن والآخرون.

ومع هذا لم يكن باموك في رواياته، التي ترجمت إلى عشرات اللغات، "حاملاً رسالة في السياسة، ولا مبشراً بعقيدة راسخة لا تعترف بالخطأ". وهو في هذا الصدد يقول: "بالنسبة لي ينبغي للأدب أن يكون من أجل الجمال وحده، لا لتوجيه رسائل سياسية، فأنا أكتب لأؤثر في القارئ بكتاباتي الجيدة. حتى في روايتي السياسية «ثلج»، لم أحاول أن أنقل رسالة سياسية، بل كل ما حاولت فعله الحديث عن روح هذا البلد ومشكلاته، وعن الألم والغضب في جزء بعيد من هذا البلد يرقد تحت ظلال أوروبا، ولكن من دون أن أجدني معنياً بالمشاركة في هذا الصراع، فالأدب في النهاية يتكلم عن الحياة، ويعكس النقطة الأكثر عمقاً في الروح الإنسانية».

رواية أورهان باموك "ثلج" (صدر ت بالعربية عن دار الجمل في كولونيا بترجمة عبد القادر لؤي) تواصل تصوير هذا التعدد / التناقض في المجتمع التركي: ما يشغل الناس عن حجاب المرأة، وما تبدو عليه المدينة في دراما الأحزاب المتصارعة، والعنف الدموي وهو يمارس من العسكر والإسلاميين المتطرفين.

بل ينعكس ذلك حتى في ردود الفعل عن الرواية هذه، ففي الحوار الذي أجرته مع الكاتب صحيفة "ليمانيتي" الفرنسية (ترجمة أحمد عثمان) يقول باموك حول ردود الفعل هذه: "الإسلاميون الراديكاليون والعسكريون العلمانيون أحبوا وكرهوا الكتاب، لحجج متعارضة كلياً. الإسلاميون أحبوا أن كاتباً علمانياً من الضفة المقابلة كشف بشرف كيف أن العسكريين الأتراك اضطهدوهم وأن المؤسسة السياسية العسكرية لا تنشغل البتة بالحرية الدينية ولا بالديمقراطية. غير أنهم تضايقوا أنني صورت "مؤمنا" –هو ذا الاسم الذي يستخدمونه– يمارس الحب خارج الزواج، بالنسبة لهم، هذا لا يطابق الواقع. ولكنهم لم يهددوني. العلمانيون، بداية، ثمنوا كون هذا الكتاب هو انعكاس القلق بالنسبة لموضوعات وأدوات الأصوليين، وتقدمهم الانتخابي. غير أن الكتاب أزعجهم لما صور تعذيب الجيش. بالنسبة للنساء، اللائي يمثلن ٦٠٪ من المنتخبين، رأين أنني منحت اهتماما كبيرا، وتعليلاتهن لشخصياتي الإسلامية، ورأينه على أساس كونه نوعا من الخيانة لهن".

و"ثلج" كما يقول: "هي رواية عن الفرد ومجتمعه، عن فرحة الانتماء، وأيضا عن المصاعب التي يواجهها عند البحث عن السعادة الفردية، عن الليبرالية الفردية. كافة شخصياتي مأخوذة في تناقضاتها، ما خلا الإسلاميين الراديكاليين، المنتمين كليا".

وكان كثيرون تساءلوا وكتبوا: لماذا لم يفز بالجائزة إبن موطنه الروائي يشار كمال وهو المدرج ضمن المرشحين لها؟!

وكانت معظم الكتابات لا تقارن بين عوالم كل منهما، ولا تزيد عن كونها مناكفة، أو مشاكسة ضد الكاتب الذي قيل أن الجائزة ذهبت إليه مبكراً. والمعروف عن رواية يشار، كما يقول دلور

ميقري: "تميّزها بموضوعات، أثيرة، مجتناة الثمار من ريف الأناضول، بيئةً وأجواءً وأساطيرَ ورؤىً. إلا أنّ تلميـذه النجيـب، باموك، وبالرغم من ابتعاده عن تلك المواضيع واسـتلهامه المدينة الكبرى، في أعماله جميعاً؛ إلا أنه شاركَ معلمه في نقطة مفصلية، غاية في الأهمية، وهي: إبرازه التنوّع في الثقافات والعادات والأعـراف، المكتنفة مجتمع بلاده؛ التنوّع المرفوض، بالمقابل، من جانب العقلية الإيديولوجية، الكمالية، الموجهة ذلك المجتمع، والمفترضة تجانسه في بوتقة القومية الواحدة وثقافتها الوحيـدة. كذلك تفرّدت روايات باموك بتطرقها لثيمة مسـتجدة، على صعيد الأدب التركي؛ ألا وهيَ العلاقة بين عالميْ الشرق والغرب، على خلفية تاريخية وثقافية وحضارية".

الهويات وازدواجية الوجوه

وإذ قالت الأكاديمية السـويدية إنها تمنحه جائزة نوبل للآداب للعام ٢٠٠٦ لأنه "اكتشف رموزاً روحيـة جديدة للصراع والتشـابك بين الثقافات، في معرض بحثه عن الـروح الحزينة للمدينة التي هي مسقط رأسه"؛ فإنه جاء في بيان لجنة نوبل أيضاً: "صار باموك معروفاً بسبب موهبته الإبداعية الأدبيـة، والقدرة على التعاطي مـع موضوع الهويات وازدواجية الوجـوه". وتابع البيان أن باموك "معروف في بلاده ككاتب معارض، رغم أنه يعتبر نفسه روائياً مجرداً من أي نوايا سياسية".

وقالت الأكاديمية السـويدية للعلوم التي تمنح الجائزة في بيانها: "وسـط بحثه عن الروح الحزينة لمسقط رأسه، اكتشف باموك صوراً روحية جديدة للصراع والتداخل بين الثقافات".

ولد باموك في السابع من يونيو/ حزيران ١٩٥٢ في عائلة ميسورة ذات ثقافة فرنسية، وأوقف دراسته في الهندسة المعمارية حين كان في الـ٢٣ من العمر لينصرف إلى الأدب.

في رأي باموك أن كشـف الماضي يسـاعد على أن يعرف الأتراك "من هم؟"، وإن "الوجود في هذا البلد، سواء بالنسبة للمنتصرين وللمظلومين، هو أن تكون شخصاً آخر".

ويقول في كتابه «اسـطنبول» إن "بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، نسي العالم – أو كاد – أن اسـطنبول كانت قد وُجدت يوماً. المدينة التي ولدتُ فيها كانت أفقر، وأعتق وأكثر عزلة مما كانته في تاريخها الذي امتد لألفي سـنة. بالنسـبة لي، لقد كانت دائماً مدينة الآثار والبقايا وأحزان ما بعد الزمن الإمبراطوري. لقد قضيتُ عمري مكافحاً هذه الأحزان، أو – وهذا حال الاسـطنبوليين جميعاً – جاعلاً هذه الأحزان مُلكاً لي".

و لا يتـردد باموك في رفع السـتارة عـن وجه التاريخ التركي، القـديم والحديث. ولهذا كان ما حـدث له بعد إشـارة وردت في مقابلة أجرتها معه صحيفة سويسـرية في فبرايـر ٢٠٠٥م إلى أن "مليـون أرمنـي وثلاثين ألف كردي قتلـوا على هذه الأرض، لكن لا أحد غيـري يجرؤ على قول ذلك". والأكراد قتلوا في الصراع الذي شـبّ في المناطـق الكردية من تركيا خلال ثمانينات القرن العشرين. أما مذبحة الأرمن فوقعت أثناء انهيار الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى. ومعظم العالم يعتبرها قضية إبادة جماعية، لكن القادة الأتراك يرفضون تلك التسمية.

وفـي مقابلة مع سـتيفن كينزر، في صحيفة «التايمـز»، يقول بامـوك: «إن القوميين التقليديين الأتراك، يستخدمون الاتهام كمحاولة يائسة للحؤول دون تحديث تركيا. إنها فضيحة وعار».

وتمـت ملاحقته قضائيا أمام القضاء التركي بسـبب "إهانة الأمة التركيـة"، وهي جريمة يعاقب عليها القانون بالسجن ما بين ستة أشهر وثلاث سنوات. وتعرض لتهديدات بالقتل، كما صدر أمر فـي أحد أقاليم غرب تركيا بإحراق كتبه. غيـر أن هذا الأمر لم ينفذ، بضغوط من الحكومة التركية الحريصة على عدم تشـويه صورتها أمام العالم قبل بدء مفاوضاتها للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. وتم التخلي عن الملاحقات القضائية في حق باموك في نهاية المطاف مطلع عام ٢٠٠٦.

ويبدو أن الضغط الذي مورس على باموك كان قوياً إلى حد أنه أعلن في قناة الـ(سي. إن. إن) التركية إنه لم يقل إن الأتراك قتلوا ٣٠ ألف كردي ومليوناً من الأرمن، وإن كل ما أراده هو التحدث عن "تابو" لا يجرؤ أحد في تركيا على التحدث عنه.

وكانـت قد تصاعدت حدة الانتقادات ضده بعـد رفضه عام ١٩٩٨ قبول لقب "فنان الدولة" بعدما أصبح آنذاك الكاتب الأول في تركيا مع تسجيله مبيعات قياسية.

ويؤكد باموك حساسـية موضوع الانضمام التركي إلى أوروبا بالنسـبة للأتراك. وهو في كلمته أشـار إلى الآمال الكبيرة التي ملأت صدور الأتراك عندمـا طرقوا الباب الأوروبي، لكنه أعرب عن شعور عدد كبير من الأتراك بأن اوروبا تقطع لهم الوعود، ثم تنساهم، وفي آخر المطاف تزيد أوروبا من مطالبها تجاه أنقرة.

ويؤكـد بامـوك على الفارق بين أن ينتقد المرء نقائص الدولـة التركية في مجال الديمقراطية وأن يرصد عيوبا في نظامها الاقتصادي، وبين أن يهين الثقافة التركية بأكلمها.

أورهان باموك في كلمة له في الـ(باولس كيرشـه) في فرانكفورت، حذر الاتحاد الأوروبي من تجاهـل يد تركيا الممددة ناحيته. يقول باموك: "إن إثارة المشـاعر المعادية لتركيا في أوروبا سـتقود للأسـف الى نشوء مناخ قوي معادٍ لأوروبا داخل تركيا"، لذلك يحذر الاتحاد الأوروبي من تجاهل يد تركيا الممددة ناحيته.

ومع هذا فقد قابل معظم الأتراك، كما نقل يوسـف الشـريف في "الحيـاة"، خبر الفوز بالجائزة بـ"موجـة من الفرح العارم طغت على الأوسـاط الأدبية والسياسـية في تركيا"، فقطعت "وسـائل الإعلام التركية إرسـالها وراحت تتحدث عن الكاتب الذي خلد اسـم تركيا في التاريخ. فيما قال الكاتـب والناقد الروائي حقي ديفريم أن باموك اسـتحق الجائزة عن جدارة، بل كان الأحق بها منذ العام الفائت، وان باموك هو أكثر من يتقن كتابة الرواية وسردها.

أما الشـارع التركي فشـارك الوسـط الأدبي فرحه وإن لم يخف توجسه من ارتباط هذا النجاح بتصريحـات أورهان بامـوك التي يقول فيها إن أحداً في تركيا لا يسـتطيع أن يتحدث عن مذابح الأرمـن. ويجمع الكثيرون على إجادة باموك فـن الرواية، لكنّ كثيرين يعتبرون أن تصريحاته تلك جاءت تملقاً للقائمين على الجائزة بعدما شـاع ترشـيحه لها. لكن الأديـب التركي المعروف زولفي ليوانلـي قال إنه ولو كان دافع الأكاديمية السـويدية لاختيار اورهان باموك هـو تصـريحاته حول

موضوع الأرمن فإن ذلك لا يغني عن حقيقة كونه كاتباً متميزاً، وأنه خلد اسم تركيا؛ "لأن التاريخ لن يذكر بعد أربعين سنة تصريحات باموك وإنما كتبه والجائزة التي نالها".

ما بقي أنه وفي اليوم نفسه الذي أعلن فيه فوزه بالجائزة صادَق البرلمان الفرنسي على مشروع قانون يُجرِّم إنكار تعرض الأرمن لمذبحة على أيدي الأتراك العثمانيين، وتساءل كثيرون: هل كانت الجائزة تقديرا لمؤلفاته أم أنها أعطيت له لأنه قلل من القيم التركية باعترافه بإبادة الأرمن على حد قول رئيس جمعية المحامين القوميين الأتراك؟

لكن القرار لا ينسجم مع تصريحات وآراء أورهان، المشار إلى بعضها هنا، الذي يسعى لانضمام تركيا إلى أوروبا، وإنما يلبي رغبة فرنسا التي تتردد بالإعلان صراحة عن عدم قبول تركيا في أوروبا.

يقول أورهان: "أن ترهق نفسك بالأفكار القويَّة هو شغفٌ تركيٌ بالذات".

ع. المقري